

مشكلة الاغتراب في فلسفة أبو حيان التوحيدي

*The Problem of Alienation in The Philosophy of Abu Hayyan al-Tawhidi*ط.د. عمرون مليكة^{1*}، أ.د. كبير محمد²¹ جامعة وهران 2-مخبر الفلسفة وتاريخها- (الجزائر)

amroun.malika@yahoo.fr

² جامعة وهران 2-مخبر الفلسفة وتاريخها- (الجزائر)

Mohamed_kebir12@yahoo.fr

تاريخ النشر: 05 / 04 / 2022

تاريخ القبول: 19 / 03 / 2022

تاريخ الاستلام: 14 / 01 / 2022

ملخص:

تعتبر مشكلة الاغتراب من بين أهم المشكلات الفلسفية و التي أقبل عليها العديد من الفلاسفة لدراستها و معالجتها، فكل فيلسوف تمكن من طرح نظرية حول هذه المشكلة على حسب الأوضاع و الظروف التي آلت لتشكيل الاغتراب و المشكل الأساسي خاصة في التفكير في مجال الفلسفة دائما ما يرجع او يعزى هذا المصطلح بالفيلسوف هيجل متناسين أن تاريخ الفلسفة هو تاريخ استمراري ولا ينفصل عصر عن عصر سابق له، لذلك فالاغتراب له جذور في الحضارة العربية الاسلامية التي قدمت شروحا و أسبابا لهذا المصطلح من أمثال ذلك أبو حيان التوحيدي الذي عانى من الاغتراب كل ذلك يجعلنا نتساءل: ما هي الأسباب التي دفعت بأبي حيان التوحيدي لأن يصبح مغتربا؟ هل لأبي حيان التوحيدي فلسفة او نظرية في الاغتراب؟ أم أنها مجرد سيرة ذاتية له؟.

الكلمات المفتاحية: أبو حيان التوحيدي; الاغتراب; الغريب; الغربة; الألفة; فلسفة الاغتراب.

Abstract:

The problem of alienation is considered among the most important philosophical problems that many philosophers have broadly treated every philosopher managed to put forward a theory about this problem Depending on the conditions and circumstances that led to the formation of alienation, and the main problem, although thinking in the field of philosophy this term is always attributed to Hegel. Bearing in mind that the history of philosophy is a history of continuity each era connected to a previous era. Therefore, alienation has roots in the Arab-Islamic civilization that provided explanations and reasons for this term, such as Abu Hayyan al-Tawhidi, All of this makes us wonder: What are the reasons that prompted al-Tawhidi to become a migrant? Does al-Tawhidi have a philosophy or theory of alienation? Or is it just his autobiography?

Keywords: Abu Hayyan al-Tawhidi; alienation; the stranger; alienism; Familiarity; philosophy of alienation.

* المؤلف المرسل.

مقدمة

إن الإغتراب يعد إشكالية محورية في تاريخ التفكير الفلسفي، والذي أصبح فكرا له أصول و جذور و آليات للتفكير، ومن ثمة فلسفة، هذا ما نشهده عند العديد من المفكرين والفلاسفة و حتى الأدباء من وجدوا في مسألة الإغتراب فكرا و نمطا محوريا للتعبير والتفكير و في الكتابة في كل المشكلات المعاشة، وبذلك الإغتراب قبل أن يكون فلسفة كان معاشة، الإغتراب له عدة أشكال و عدة أوجه (إغتراب اجتماعي، إغتراب فكري، إغتراب سياسي، إغتراب جغرافي...) .

وكل فيلسوف قد اتخذ من مشكلة الإغتراب نمطا معينا: هنالك من عالجهما على المستوى المعرفي وهنالك من عالجهما على المستوى الاجتماعي و الاقتصادي، وعليه الإغتراب وجه لعدة أوجه، قد تختلف في السبب ولكنها تتفق في معاشة الإغتراب الذي كان سببا و محورا للعديد من القراءات التي تجعل من مسألة الإغتراب أكبر مشكلة معرفية ووجودية يعاني منها العديد من الفلاسفة والباحثين، وهذا ما سنتطرق إليه في فلسفة الإغتراب عند "أبو حيان التوحيدي" الذي يعد من بين أوائل المفكرين و الفلاسفة و الأدباء الذين عالجوا مشكلة الإغتراب ولكن أبو حيان التوحيدي كان أكثر من هذا كله لأنه عاش الإغتراب و تزعزع فيه إذ نجد الدراسات الحديثة و المعاصرة بمجرد استنطاق مشكلة الإغتراب تنسب الى هيجل، روسو، ماركس، لوكاتش متناسين أن الفكر العربي الإسلامي كان سباقا لدراسة عدة مواضيع الآن تنسب الى العالم الغربي وعليه نتساءل:

ما مفهوم الإغتراب؟ ما هي المنطلقات والأسباب التي أدت بأبي حيان التوحيدي لدراسة الإغتراب؟

أولا: مفهوم الإغتراب:

مفهوم الإغتراب لغة:

«لفظة إغتراب حديثا لمصطلح فلسفي **Alienation** مشتقة من الفعل **Alienate** المأخوذة عن أصلها اللاتيني **Alienatus** وتعني الذي لا يملك ذاته وهو تعريف ميتافيزيقي للفظ إغتراب» (علي محمد يوسف، 2013).

إن لفظة إغتراب حسب السند السابق هو دليل على غربة المرء عن ذاته، إغتراب الإنسان عن نفسه وعن محيطهم الاجتماعي الذي هو سببا في غيبته.

«الإغتراب نقول: تغرب وإغترب: بمعنى فهو غريب وغرب بضمين و الجمع غرباء، والغرباء أيضا الأبعد، والتغريب: النفي عند البلد، وإغترب فلان: إذا تزوج الى غير أقاربه و أعزب: جاء بشيء غريب و أغرب: أيضا صار غريبا» (الرازي أبوبكر، 1989).

بشر أبو بكر الرازي في مؤلفه مختار الصحاح أن الإغتراب مصطلح يدل في معاشة الغربة مثلا إغتراب الإنسان في وطنه أو إنشاء علاقة مع أناس آخرين غير أهله يسعى غريبا، وذلك الى الغربة «إغتراب **Alienation** انعزال عن أي جانب من المجتمع إغتراب **Alienation** انعزال عن أي جانب من المجتمع، الشعور بالعجز، الشعور بفقدان المعنى، رفض المعتقدات والقيم في مجتمع ما» (الصالح مصلح، د.س).

أما التعريف الذي أورده الصالح المصلح قام به مصطلحات العلوم الاجتماعية يعرب على أساس أن مفهوم الاغتراب أكثر من اغتراب الإنسان عن ذاته فبالنسبة له أن الاغتراب هو شعور موحد في نفسية المغترب من جهة تفكيره وذاته ومن جهة المجتمع الذي يعيش فيه أو الذي بالنسبة له أن المجتمع هو السبب الأول في اغترابه والإحساس بالرفض وعدم القبول ذلك ما ينشئ عنه عدم القدرة على المواجهة يصبح الإنسان عاجز عن التصالح مع ذاته ومع واقعه.

«ارتهان، استلاب **Alienation** في المعنى الحقوقي القديم، بيع أو تنازل من حق الى شخص آخر وهو مجازا: حال المنتسب الى آخر **Alienatus...** هو الذي لا يمتلك ذاته كتكوين فكرة علمية نفسه عن الإنسلاّب العقلي» (أندري لالاند، 2001).

هذا التعريف يعد مفهوما آخر لمفهوم الاغتراب على أساس أن الاغتراب هو عبارة عن تنازل لا يعنى بالتنازل (التنازل والاعتراب) عن الذات بل الإنسان المتنازل عن ذاته لإنسان آخر هذا الاغتراب **Alienation** في مجال القانون و الحقوق و الاغتراب الذاتي هو اغتراب نفسي (عقلي).

«الاعتراب مقولة غير محددة المعالم تختلف معناها باختلاف استعمالاتها بالاعتراب بالمعنى الحقوقي هو التنازل عن الملكية والطب هو الاضطراب العقلي والفلسفة تشير الى غربة الإنسان عن جوهره و تنازله عن المقام الذي ينبغي أن يكون فيه» (معن زيادة، 1986).

أما في الموسوعة الفلسفية العربية لـ "معن زيادة" تقدم لنا تعريفا مغايرا عن كل التعريفات السابقة لأنها توضح لنا أشكال الاغتراب وهي كالتالي:

أ/ في المجال الحقوقي: هو تنازل إنسان عن حقه أو ممتلكاته الى إنسان آخر، وهذا التنازل يجعل من الإنسان مرهونا في يد شخص آخر

ب/ في مجال العلوم الطبية: الاغتراب في مجال الطب و الصحة العقلية هو عبارة عن مرض نفسي أو عقلي و الذي من خلاله يشخص المريض على أنه مريض لأنه مغترب في نفسه.

ج/ في مجال الفكر و الفلسفة و الاقتصاد: الاغتراب هو حالة يعيشها الإنسان برفضه للمكان الذي يعيش فيه مع أناس لا يشاركونه تفكيره فيصبح مغتربا عن ذاته لعدم توافق الذات مع الواقع.

بالإضافة الى ذلك يمكن القول هنالك كذلك أشكال أخرى لم ترد في هذا السند مثلا:

1/ الاغتراب الديني: هو اغتراب المؤمن على دينه او عدم الإيمان بدين معين و الخروج عنه وعيش حالة اللاإعتقاد.

2/ الاغتراب الاجتماعي: هو اغتراب الإنسان أو الفرد عن المجتمع او عدم قابليته للاندماج معه.

3/ الاغتراب السيكلوجي: هو اغتراب الإنسان عن ذاته ولكنه أخطر أنواع الاغتراب و عند علماء النفي يشخص على انه مرض نفسي يصبح المرء غير متصالح مع نفسه و من تم يتحول هذا الاغتراب من عامل نفسي الى عامل اجتماعي (سوسيولوجي).

«أما العزلة النفسية المريضة الغير مبدعة فقد تكون رد فعل سلبي مبعثه و مسبباته المحيط أو الواقع، والانكفاء نحو الداخل بسلوكية وتفكير منغلقة عن الذات» (علي محمد اليوسف، 2013).

تعريف الاغتراب اصطلاحاً:

إن مصطلح الاغتراب عرف له عدة تعريفات وذلك حسب توظيفاته في الحقول و العلوم المعرفية (علم الاجتماع-علم الاقتصاد-علم النفس-الفلسفة-الطب-الحقوق والقانون... الخ) لذلك لا يمكن أن نحدد تعريفا جامعاً لمفهوم الاغتراب و بما أننا نعمل في مجال الفلسفة ، سنحاول أن نتطرق في هذا المفهوم من خلال تعريفات الفلاسفة الذين حاولوا أن يقدموا تعريفات و نظريات حول هذه المشكلة.

ثانياً: / الاغتراب في التراث الإسلامي:

أ- ابن باجة: (335هـ-1138م):

إن الفيلسوف ابن باجة قد عرض مفهوم الاغتراب و عرف المغترب باسم "المتوحد" وذلك ما أورده فيصل عباس في موسوعته الفلسفية يشير متحدثاً عن فكرة الاغتراب عند ابن باجة قائلاً: «إن المتوحد هو الذي يعيش طبقاً لدواعي العقل، ويسمى عقله في جو من الحرية الخالصة، ولا يتسنى له ذلك إلا باعتزال المجتمع» (فيصل عباس، 2011).

يشير السند السابق أن المتوحد هو المنعزل عن المجتمع للبرقي بالفكر العقلي و فكرة الاعتزال عند ابن باجة هي لتحقيق السعادة و لكن ابن باجة يحدد الاعتزال وعيش التوحد عن عامة الناس و لكن يؤكد على الالتحاق بأهل العلم و المعرفة بطريقة خالصة وذلك على طريق المتصوفة الذين يسلكون طريق التصوف للالتحاق بالنور الطبيعي و السمو بالعقل نحو الفضيلة العليا.

«إن المتوحد: يقدم ابن باجة مرادفين للمتوحد فهو غريب و نابت، وهو نتيجة وجود المدن الفاسدة بخلاف الفارابي الذي اعتبر النوايت النابت فرداً او أفراداً مخالفين و خارجين عن آراء أهل المدينة الفاضلة» (عبد الغني التازي، د.س).

إذن النابت على حسب رأي ابن باجة سببه المدن و الحكام الفاسدين الذين أفسدوا البلاد و أن النابت هو الوحيد القادر على إصلاح هذا الفساد من خلال رؤيته الاشراقية، فلقد عاش ابن باجة الاغتراب على جميع الأصعدة و أن المتوحد هو الذي يعيش الغربة الروحية و الفكرية وذلك الذي يكون رافضاً للعقلية السائدة و الأوضاع المقلقة و التي تجعل من الإنسان مغترباً، ولكن الاغتراب بالنسبة لابن باجة هو اغتراب ايجابي فقد كانت غربيته مساهمة في تأكيد أفكاره و التي تتنافى مع أفكار المجتمع.

«إن الثوابت هم من لم يجتمع على رأيهم أمة أو مدينة، وهؤلاء هم الأغراب الذين غادروا أوطانهم ظلّموا هناك غرباء في عاداتهم وفي آرائهم وفي أفكارهم» (عادل الألوسي، 2003).

ابن باجة قد عرف المغتربين بالثوابت ، يقصد بالثوابت القائمون على أفكارهم مناضلون على آرائهم الفكرية و الفلسفية وهم أنفسهم الذين يرفضهم المجتمع فيعيشون الاغتراب بنهج صوفي، ونجد ابن باجة قد طرح مشكلة الاغتراب و التوحد في رسالته " تدير المتوحد".

ب- أبو حامد الغزالي: (505هـ-1111م)

إن الفيلسوف أبو حامد الغزالي من بين أهم الفلاسفة المسلمين الذين حاولوا أن يقدموا للفلسفة الإسلامية إسهاماتهم، فلقد كانت له العديد من المؤلفات و الكتب، مع انه كان متدينا و مدافعا عن الدين الإسلامي في أوجه المغالين و المنحرفين الذين حاولوا محاربة الدين الإسلامي ولكن في مؤلفاته ينظر الى العالم المعاش نظرة ازدراء و دعوى الى التحرر منه عن طريق سلك طريق الزهد.

« الغزالي رجل دين وفقه وعالم من علماء الكلام الكبار أكثر منه فيلسوفا، ولكن الغزالي على علمه كان كما قلنا ينظر الى الحياة نظرة المغترب الغارق في غربته، الناظر من وراء العتمة، وكأن الحياة قد غدرت به وألمته »(عادل الألوسي، 2003).

الغزالي لم يعجبه المسلمين الذين بدأوا يتراجعون عن دينهم الحنيف و سنة نبيهم محمد صلى الله عليه و سلم واستسلموا للتلف و البذخ، في عوض الحفاظ على هذا الدين و الاعتزاز به لقوله تعالى: «كنتم خير أمة أخرجت للناس»(سورة آل عمران، الآية رقم 110)، وقد نلمح من خلال أثر مؤلفاته مثلاً "الفقر و الزهد" و كتاب "العزلة" دعوة الى عزلته من الحياة الدنيوية و ذلك بسبب أنه يدرك أن الحق في الحياة أن تكون زاهدا فيها و هذا حال كل فيلسوف و مفكر يفكر على خلاف زمانه و على خلاف الذين يعيش معهم فيدخل في حالة غربة كأنه إنسان غريب عنهم و عن معتقداتهم.

ثالثا/الاغتراب في الفكر الغربي:

إن مسألة الاغتراب قد شغلت أذهان المفكرين و الفلاسفة عبر قرون من الأزمنة، هناك من رد الاغتراب على أساس أنه حدث فكري و هنالك من يراه انه شديد الارتباط ببيئة و مجتمع المغترب، السؤال الذي نحاول أن نقوم بعرضه: كيف عرف الفلاسفة الغربيون الاغتراب؟ هل هو ناتج عن اغتراب الفكر أم البيئة؟

أ/هيجل: (1770-1831)

يعد الفيلسوف فريدريك هيجل من أعمق الفلاسفة الذين عالجوا مسألة الاغتراب لدرجة انه قد اعتبر أن مصطلح الاغتراب كان هيجل سباقا في شرحه و محاولة تعريفه و التنظير له، وقد قام بعرضه عرضا منهجيا وبدلالة واضحة انه التحول عن الذات الحقيقية.

« هيجل يرى الاغتراب واقع وجودي متجذر في وجود الإنسان في هذا العالم، فثمة انفصام موروث بين الفرد بوصفه ذاتا مبدعة خلاقة تريد أن تكون وأن تحقق نفسها وبين الفرد موضوعا واقعا تحت تأثير الآخرين واستغلالهم»(مريامة بريشي، 2015).

انه يجل قد فسر الاغتراب انه مسألة وجودية قبل أن يكون مسألة إبستمية لأنه عالق بالإنسان، مرتبط به، ففكرة الاغتراب نفسها هي فكرة الانعزال عن المجتمع و عن الآخرين المشاركين في هذا المجتمع، فيصبح بذلك الفرد محققا لرغبة الآخرين منفصلا عن واقعه الحق، ومن هذا يتحول من حالة وجودية الى حالة إبستمية على مستوى الفكر، وبذلك يفقد الفرد حضوره وقابليته ومشاركته في هذا الواقع.

«وإنسان المغترب بالمعنى التاريخي عند هيجل هو ذلك الإنسان الذي يعيش في عالم ميت لا إنساني وصفه هيجل بأنه حياة متحركة للأموات»(السيد علي شتا، 1984).

درس هيجل الإغتراب دراسة تاريخية من خلال انه حالة مرضية غير عادية تجعل الإنسان منكبا على نفسه رافضا لغيره، فيحلل هيجل هذا الإغتراب على أساس يقوم على عدة مستويات فمثلا الإغتراب الناشئ عن الحرب هو اغتراب حتمي و الحل الوحيد للتخلص من هذا الإغتراب هو ثورة ضد الوضع السائد للخروج من هاته الحلقة و التي يسميها هيجل الوعي التاريخي.

ب/ فيورباخ: (1804-1872)

إن الفيلسوف فيورباخ من بين الفلاسفة الذين مهدوا و حرصوا على نقد المثالية التي تجعل الواقع مجرد نسخة عن عالم افتراضي فلقد درس عند هيجل و تأثر بروحه الفلسفية الفذة في الكثير من الدراسات، ولكن كباقي الفلاسفة ما ينقلب الطالب عن أستاذه رافضا الأسس التي يقيمها لإقامة فلسفته فنجد فيورباخ رفض النظرة المثالية التي عززها هيجل و أقام عليها فلسفته، ولا يمكن أن نتجاهل ان القاعدة الأساسية لفلسفة فيورباخ هي فلسفة هيجل، هذا ما يدفعنا الى التساؤل: بما أن فيورباخ انطلق في فلسفته من خلال فلسفة هيجل فما نظريته حول الإغتراب ؟ هل هي نفسها نظرية هيجل أم أنها تختلف عنها؟

إن نقطة فيورباخ في دراسة الإغتراب كانت عكس منطلق هيجل لان هذا الأخير عرج عن دراسته لمفهوم الإغتراب انطلاقا من الوعي و تحقق بذلك عن اغتراب الإنسان عن ذاته، في المقابل نجد أن فيورباخ انطلق من فكرة لا يمكن أن يتقبلها هيجل الفيلسوف المتدين لان فيورباخ جعل من الدين أكثر إشكاليات في الوجود من تساهم في الإغتراب.

«يعتبر الدين بالنسبة الى فيورباخ تعبيرا عن ذلك العالم الوهمي الذي يستلج بواسطته الإنسان ماهيته الحقة وذلك حين يعتقد بوجود كائن مفارق لذاته يسميه الله..... والنتيجة هي أن الدين في جوهره اغتراب» (وابل نعيمة، 2013).

إن فيورباخ ينظر الى الدين انه يؤسس للإغتراب أكثر ما يؤسس للاعتقاد و هو يتساءل عن أولئك الذين يؤمنون بموجودات لا صلة لها بالوجود الفعلي المتحقق لأنه لا يتوافق مع العقل و مختلفا عنه ويمكن أن نفهم أن اعتقاد فيورباخ له أسبابه، بما أنه كما ذكرنا سابقا انه انتقد مثالية هيجل القائمة عن المطلق و أكد على المادية التي هي حقيقة واقعية تجرى فيها حواسنا و تجاربنا، فهو بذلك لم يقبل أي شيء خارج عن حدود الحس و منها فكرة الله التي لا تتحقق واقعا فهي بالنسبة له غير موجودة.

ج/كارل ماركس (1818-1883): إن الإغتراب عند ماركس قد سلك طريقا مغايرا يمكن القول أنها كانت أكثر تصوبا من هيجل، لان ماركس عالج الإغتراب في الوسط الحقيقي ألا و هو المجتمع و خاصة في المجال الاقتصادي وعلاقاته الإنتاجية وحاول إعادة الاعتبار للعامل و محاولة البحث عن الأسس الأولية لهذا الإغتراب وعلاقته بالنظام الرأسمالي الذي كان سببا فعليا في تجسيد الإغتراب .

«يؤكد ماركس أن اغتراب الإنسان عن عمله أو ناتج العمل، يوقعه في سلسلة اجتماعية من التغريب، ابتداء من غربة الذات والعمل والآخرين» (رشا جليس عبد الفتاح، 2015).

لقد انتقد كارل ماركس النظام الرأسمالي كونه سبب الإغتراب بالنسبة للعمال و الطبقة العاملة وذلك أن جهد العامل و ساعات العمل و أجرته لا تتماشى مع مجهوداته التي يبذلها جراء العمل هذه من بين

المنطلقات التي جعلت من العمال يعيشون الاغتراب، وهذا النظام الذي لا يراعي الأسس الفعلية و علاقة الجهد بالأجر والذي يتعامل مع العمال عبارة عن وسائل تنظم و تفعل وسائل الإنتاج وبذلك كانت دعوة كارل ماركس الانقلاب عن النظام الرأسمالي و تبني النظام الشيوعي.

«عندما تعلن البروليتاريا عن انحلال النظام السالف، فهي إنما توضح عن وجودها... عندما تطالب البروليتاريا بالغاء الملكية الخاصة فإنها لا تفعل سوى أنها تنادي بأساس للمجتمع ما جعله المجتمع أساس لها» (وابل نعيمة، 2013).

لقد تمكن ماركس من أن يفضح النظام الرأسمالي الاستغلالي و يعلن عن نظام جديد شيوعي ويخرج العامل من فجوة الاستغلال و التلاعب بجهد مقابل مبلغ مالي لا يسد حاجاته اليومية و أن ينتشل نفسه من الغربة و ان يحقق ذاته من خلال العمل وفق شروط يحددها العامل و ليس رب العمل.

رابعا / الاغتراب في فلسفة أبو حيان التوحيدي: (310-414 / 922-1023)

إن تجربة الاغتراب كما قمنا بتحديدنا سابقا كانت تجربة لا تنفصل عن الحادثة المعاشة لان الحدث المعاش يمكن أن يكون فكرا، أو واقعا فهو يفسر الوجود و من ثم يمرر المعرفة، فكل فيلسوف حاول أن يقدم مفهوما للاغتراب على حسب حالته الخاصة أيا كانت لذلك فالاغتراب قبل كل شيء هو شعور قبل أن يكون فلسفة، والفلسفة هي محاولة لتحليل هذا الشعور او هاته الحادثة.

وبما أن بحثنا الرئيسي هو مشكلة الاغتراب في فلسفة أبو حيان التوحيدي هذا يدفعنا الى التساؤل : ما هي الدوافع او الأسباب التي أدت الى بالفيلسوف أبو حيان التوحيدي لدراسة الاغتراب؟

أ/ الأسباب السياسية و الثقافية و الاجتماعية في عصر أبو حيان التوحيدي:

إن الأجواء السياسية و الثقافية في عصر القرن الرابع الهجري كانت من بين الأسباب التي جعلت من الفيلسوف أبو حيان التوحيدي يعيش الاغتراب بكل أوجهه، لقد كان منبوذا من طرف الطبقة الحاكمة و الوزراء لأنه كان صريحا لا يجاملهم في المجالس ولكن يمكن أن لا تعقل أنه كان إنسان مثقف ويلحق بصوف العلم ويمجد العلم و العلماء.

« إن إحباط شخصية أبي حيان التوحيدي في مجالس الوزراء والأعيان في الدولة إنما كان لأن أبا حيان لم يتدرب على الطريقة التي بها يتخاطب الناس في المجالس العالية، فقد انتقل فجأة هكذا من مجالس الوراقين في السوق و من مجالس الأدب و الظرف و الثقافة الى ذوي السلطان، وكان له معهم خطوب و أحداث » (عبد الأمير الاعسم، 2009)

إن أبا حيان التوحيدي على الرغم من أنه كان حاد الطباع، إلا أنه كان موسوعي وساهم في علوم عصره، من مؤلفاته: المقابسات، أخلاق الوزيرين، الإشارات الإلهية، الإمتاع و المؤانسة، الصداقة و الصديق، البصائر و الذخائر، الهوامل و الشوامل، ولقد عايش الاغتراب انطلاقا من واقعه المزري الذي كان يعيشه، و حياة التشاؤم التي عاشها فلم يتقبل أن يكون رجل علم و هو يعيش بعيدا عن مكانته الحقيقية.

«فعاش على الهامش ولم يقدر أن يتجاوز الى صلب الأحداث ثم هذا التشكي من الرياء الذي حفلت به حياته مع الحكام نتيجة لريادته مجالسهم» (عبد الأمير الاعسم، 2009).

يجمع المؤرخون و الكتاب أن الأسباب التي جعلت من أبي حيان التوحيدي يعيش مهمشا و محبطا انه سببا لكل ذلك، لأن كتاباته كانت تقلل من قيمة الحكماء و حتى المريدين هذا ما جعله مستبعدا في المجالس لأنه كان صريحا و مبالغا في صراحته، وان كل هذه الأسباب كانت من بين الدوافع التي أسهمت في اغتراب التوحيدي.

ب/الغربة والاغتراب في فكر التوحيدي:

لقد أشرنا فيما سبق أن التوحيدي عاش غربة على المستوى الاجتماعي و الفكري والثقافي فكان مغتربا اجتماعيا بين الحالة الاجتماعية المزرية التي عاشها و فكريا أنه كان منفصلا عن بني عصره في تفكيره و كان رافضا الوضع الذي كان سائدا.

« فحين تغيب الذات عن معناها الإنساني، كما ذكرنا أنفا، فإنها تغرب عن حقيقتها الوجودية الأصلية أي عن مراهاها العاكسة والكاشفة للحقائق الكونية والإلهية »(هالة أحمد فؤاد، 2015).

يشير أبو حيان التوحيدي أن اغتراب الذات عن ذاتها يجعل منها مغتربة في محيطها الاجتماعي وبذلك لا يمكنها أن تؤول العالم و أن تكشف عن حقيقته و عن باقي الحقائق الأخرى التي تتطلب من المرء أن يكون على وعي بذاته الحقيقية.

يضيف أبو حيان التوحيدي أن غفلة و اغتراب الشخص هو اغتراب في الزمن.

«إن السقوط في الغفلة سقوط للذات في قبضة الزمن، يستنفذ سنوات العمر بلا جدوى، حيث تفيق الذات فجأة على النهاية المحتومة... ويعلن هذا السقوط في قبضة الزمن عن ذات فاقدة الحضور في الزمن»(هالة فؤاد، 2015).

إن التوحيدي يتحدث عن الغفلة و عن تبعاتها التي تجعل من الإنسان مجرد وجود في الزمن فاقدا للوجود الحقيقي في وجوده الأصلي، فبالنسبة للتوحيدي أن الاغتراب هو حالة انعزال عن الواقع بتفكير خاص و حضور خاص، مبررا انه غفلة بلغة التوحيدي.

الفيلسوف التوحيدي بما انه عايش الاغتراب و عانى من تبعاته يبرز لنا أوجهه التي تعد حالة مفتقرة و منسلخة عن الوجود، شخصيته كانت انعكاس تام وواضح عن الإنسان المغترب في وجوده الحقيقي.

«غربة العدالة الاجتماعية إذ يحملها التوحيدي بين جنبه ليعلن للعالم إفلاس المقاييس الوضعية المستمدة أساسا من التعاليم السماوية المنحرفة، وبهذا تكون صرخات التوحيدي ثورة على الذات، ثورة على النظم البرجوازية، ثورة على العدالة الاجتماعية»(علي دب، 1988).

إن مشكل أبو حيان التوحيدي يتمثل في عدم تقبله فكرة أن يخدم هذا المجتمع المجحف في حقه و الذي لا يأويه و لا يوفر له حقا كإنسان لذلك تحدث عن إجحاف العدالة الاجتماعية و أسس و قواعد هذه العدالة الاجتماعية المؤسسة على تغييب فكره الخصب و محاولة تهيمشه.

لقد عالج أبو حيان التوحيدي مشكلة الاغتراب في مؤلفه "الإشارات الإلهية" و التي يتحدث فيها عن معاناته وغربته في دياره وذلك يتجلى في قوله: «إن الغريب بحيث ما حطت ركائبه ذليل ويد الغريب قصيرة ولسانه أبداً كليلاً والناس ينصرون بعضهم بعضاً وناصره قليل» (أبو حيان التوحيدي، 1982).

إن هذا السند من الإشارات الإلهية أكثر تعبيراً عن الاغتراب والغربة التي حلت على الأديب والفيلسوف أبو حيان التوحيدي فرغم أثره وكتاباته وأدبه إلا أنه دخل حلقة الاغتراب عاش و مات فيها وافته المنية و أكمل طريقه المغترب .

«الغريب من إذا قال لم يسمعوا قوله و إذا رآه لم يدوروا حوله الغريب ما إذا تنفس أحرقه الأسى والأسف و إن كتم أكمده الحزن و اللهف...الغريب إذا زار أغلق دونه الباب و إن استأذن لم يرفع له الحجاب» (أبو حيان التوحيدي، 1982).

إن أبو حيان التوحيدي قد عايش الغربة فلم يجد درعاً يسنده و لا مأوى يحويه كان أكثر الناس ثقافة و كرا فلم يعرف في زمانه أكثر منه تفكيراً و لساناً أدبياً و فكراً لفيلسوف حر، لكن كل السبل التي عاش ليحارب لأجلها كانت سبباً في غربته في عوض أن ينتشله فكره من الغربة و يعزز له الألفة التي تمنى أن يجدها في بني عصره انكفاً كل شيء، طالبا طوال حياته العدالة الاجتماعية الغائبة عنه فدخل طريق الغربة و زاد مسلكه و كل كتاباته كانت تحاكي معاناته، فصور لنا حقيقة المغترب الذي هو غائب و حاضر بعيد و قريب، إن أبو حيان التوحيدي قدم لنا رؤياً مغتربة وانتهت به الى حرق كتبه فلقد انتبه الى أن هذا المجتمع الذي كتب لأجله هو الذي ساهم في فقره و عجزه، فإحراق كتبه كانت نهاية الاغتراب و تحقيق لغربة الذات وافتقارها للألفة كذات تعيش في مجتمع و غربة عنه.

خاتمة:

إن الاغتراب كمفهوم و كمصطلح تعددت مشاربه و اختلفت بحسب اختلاف ظروف نشأته، فهناك من كان مغترباً عن ذاته كما أشار إليه الفيلسوف هيجل و هناك من كان غريباً عن واقعه ابن باجة نموذجاً و هناك من اغترب عن واقعه الذي لم يعد يرضيه و يحقق له هدفاً في الحياة مثل أبو حامد الغزالي، ولكن الاغتراب المستلب هو ذلك الاغتراب الذي يكون سببه المجتمع و يتحول شيئاً فشيئاً ليصبح مشكلة: اغتراباً فكرياً و روحياً و معرفياً و وجودياً كما تبين عند أبو حيان التوحيدي.

كان التوحيدي مثالا عن الإنسان المغترب الذي عايش الاغتراب بكل أوجهه، فكتب عنه و حاول إيجاد سبل للتخلص منه ولكنه وقع فريسة له و كان على معرفة حقة بأنه ليس بشخص مثل العامة، كان مجلسه يصمت لحضوره لقوة اطلاعه، ونباهته وبلاغته والدليل على ذلك أن كل المؤرخين والفلاسفة وحتى الأدباء يجتمعون على أنه كان سابقاً على عصره بقرون وأنه يمثل رمز الحداثة والتجديد والإنسانية.

من هنا الاغتراب مشكلة فلسفية و فكرة نفسية قبل أن تكون فكرة فلسفية و كل إنسان أو باحث يكتب و يفكر في الاغتراب إنما هو يعيش في حالة عدم الاستقرار و ذلك بعدم قبوله للساند كان فكراً أو نظاماً (كارل ماركس) أو ديناً (فيورباخ-نيتشه) ولكن هناك من ناضل و تخلص من هذا الوعي الزائف و لكن شخصية أبو حيان التوحيدي غرقت فيه ورحلت و هي تناجي و تدعو الى الألفة.

وأخيرا نتساءل و نفتح باب البحث و النقاش : كيف عالج أبو حيان التوحيدي مشكلة الاغتراب؟ هل عالجها أنطولوجيا و ابستميا؟ أم أنه اكتفى بالجانب الانطولوجي وهل يمكن الاكتفاء بدراسة الاغتراب من وجهة وجودية فقط؟.

الإحالات والمراجع:

- 1/ سورة آل عمران، الآية رقم 110.
- 2/ علي محمد اليوسف، فلسفة الاغتراب "قراءة نقدية منهجية في فلسفة الاغتراب"، الدار العربية لموسوعات بيروت، ط1، 2013، ص9.
- 3/الرازي أبو بكر، مختار الصحاح، دائرة المعاجم في مكتبة لبنان، دط، 1989، ص414.
- 4/ الصالح مصلح، قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية انجليزي عربي، دار علم الكتب للطباعة و النشر و التوزيع، الرياض، ط1، ص ص 35-36.
- 5/ أندري لالاند، الموسوعة الفلسفية، منشورات عويدات، بيروت، ط2، 2001، ص43.
- 6/ معن زيادة، الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي، بيروت، ط1، مجلد 1، ص1986، ص79.
- 7/علي محمد اليوسف، فلسفة الاغتراب قراءة نقدية منهجية في فلسفة الاغتراب، المرجع السابق، ص122.
- 8/ فيصل عباس، الموسوعة الفلسفية(الفلسفة وفلسفة التاريخ، الفلسفة الإسلامية)، مركز الشرق الأوسط الثقافي، بيروت، ط1، 2011، ص ص 170-171.
- 9/ عبد الغني التازي، السياسة (المدينة) وجهل الأغلبية قراءة في كتاب تدبير المتوحد ابن باجة، مجلة الأزمنة الحديثة، دب، دس، العدد8، ص 149.
- 10/ عادل الألوسي، الاغتراب و العبقريّة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 2003، ص60.
- 11/ عادل الألوسي، الاغتراب و العبقريّة، المرجع السابق، ص61.
- 12/مريّمة بريشي، نادية مصطفى الزقاوي يوب، الاغتراب مفهوم ودلالات، مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية، دط، العدد 18، 2015، ص201.
- 13/ السيد علي شتا، نظرية الاغتراب من منظور علم الاجتماع، دار عالم الكتب للنشر و التوزيع، الرياض، ط1، 1984، ص43.
- 14/ وابل نعيمة، الاغتراب عند كارل ماركس دراسة تحليلية نقدية، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر و التوزيع، الجزائر، دط، 2013، ص ص 35-36.
- 15/رشا جليس عبد الفتاح، الاغتراب في تجربة واسيني الأعرج الروائية، دار زهران للنشر و التوزيع، الأردن، ط1، 2015، ص34.
- 16/ وابل نعيمة، الاغتراب عند كارل ماركس، المرجع السابق، ص 125.
- 17/ عبد الأمير الأعسم، كتاب المقابسات أبو حيان التوحيدي، إيوان للطباعة و النشر و التوزيع، سوريا، ط3، 2009، ص 60. المرجع نفسه، ص 64.
- 18/هالة أحمد فؤاد، التوحيدي الغفلة الانتباه، دراسة للإسلام و الثقافة و الفنون، بغداد، ط1، 2015، ص27. المرجع نفسه، ص46.
- 19/علي دب، الأديب و المفكر أبو حيان التوحيدي، الدار العربية للكتاب، ط3، دب، 1988، ص 75.
- 20/أبو حيان التوحيدي، الإشارات الإلهية، تحقيق و داد القاضي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط2، 1982، ص 81. المصدر نفسه، ص 83.
- 21/عبد الرحمن بدوي، الموسوعة الفلسفية، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، ط1، ج1، 1984، ص11).
- 22/ عبد الرحمن بدوي، الموسوعة الفلسفية، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، ط1، ج2، 1984، ص ص 80-85.
- 23/بدوي عبد الرحمن، الموسوعة الفلسفية، ج2، المرجع السابق، ص209).
- 24/عبد الرحمن بدوي، الموسوعة الفلسفية، ج2، المرجع السابق، ص418.
- 25/ عماد محمود أبو رحمة، تراث التوحيدي بين الأدب و الفلسفة، دار جليس الرمان للنشر و التوزيع، دب، ط1، 2013، ص ص 126-129.

الملاحق:

ابن باجة: هو أبو بكر محمد بن الصايغ، المعروف بابن باجة، ولد في سرقسطة قرب نهاية القرن الخامس الهجري...ثم ارتحل الى فارس حيث نال رضا أبي بكر يحيى بن اليوسف و صار وزيرا له، وهنالك توفي مسموما في سنة 1138...وقد وصلنا مجموعات من رسائله:قوله في الكون و الفساد، كلامه في النبات.

أبو حامد الغزالي: 450هـ(1058-1059)، ولد أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الطوسي، حجة الإسلام و زين الدين، أهم مؤلفاته: مقاصد الفلاسفة، إحياء علوم الدين، المنقذ من الضلال، تهافت الفلاسفة. فريدريك هيغل: فيلسوف ألماني مثالي، ولد سنة 1770 بألمانيا، مؤسس الديالكتيك، من أهم مؤلفاته: فينومينولوجيا الروح، فلسفة الحق.

فيورباخ: ولد بجنوب ألمانيا 1804 توفي 1872، فيلسوف ناقد للمسيحية، من اليسار الهيجلي.
كارل ماركس: مفكر اقتصادي و سياسي ألماني، ولد سنة 1818 بألمانيا الغربية، توفي سنة 1883، من أهم مؤلفاته: رأس المال ج1، رأس المال ج2، في نقد الاقتصاد السياسي، بؤس الفلسفة.
أبو حيان التوحيدي: علي بن محمد بن عباس أبو حيان التوحيدي البغدادي، منسوب الى التوحيد على اختلاف بين المؤرخين في معناه، ولد ما بين 310-320 هـ. كان صاحب ثقافة موسوعية كالنحو و اللغة و الشعر و الأدب و الفقه و الكلام و التصوف و الفلسفة و التأريخ، من أهم مؤلفاته: الإمتاع و الموانسة، الإشارات الإلهية، المقابسات، مثالب الوزيرين، الصداقة و الصديق، اختلف المؤرخون في تاريخ وفاة التوحيدي من 380هـ الى 414هـ.